بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية القياس العلمي (2)

**ثانيا-مناهج البحث العلمي:**

عرف البحث العلمي العديد من المناهج، وأول ما نبدأ التفصيل فيه يطلق عليه سمية "القياس"، والمقصود معنا في هذه الأوراق هو القياس العلمي، وعليه، ماهو مفهوم القياس؟ وما هي أهميته بالنسبة للبحث العلمي؟

**1-مفهوم القياس:**

إذا جئنا إلى تفصيل مفهوم القياس فإننا نجد الجانب اللغوي والجانب الاصطلاحي، أما الأول:

**أ-المفهوم اللغوي للقياس:**

حسب معجم مقاييس اللغة لابن فارس، فإن لفظة القياس في اللغة يراد بها "تقدير شيء بشيء"1 ، أما ابن منظور فقد ورد عنده: "قاس الشيء يقيسه قيسا ..إذا قدره على مثاله، ....، والمقياس : المقدار، ...، والمقياس ما قيس به،...،"،2 ، إن المعنى اللغوي الذي تأطر وفقه المعنى اللغوي للجذر(ق ي س) إنما هو التقدير.

**ب-المفهوم الاصطلاحي للقياس:**

الملاحظة التي تسجلها أغلب الدراسات المتعلقة بالقياس هو أن المفهوم الاصطلاحي للقياس يبقى مفهوما علميا إلا أنه ليس موحدا بين كافة العلوم المستخدمة له، وإنما يكون مفهوما مختلفا وذلك حسب تخصص العلم الذي يتعلق به القياس، وبشكل أكثر تحديدا نورد مفهوم القياس، حسب علم النفس، علم الاجتماع، علم اللغة،..إلخ، وبيان ذلك:

**-مفهوم القياس عند علماء اللغة:**

من بين التعريفات العامة للقياس ما أنتجه فاندرايس في كتابه اللغة، حيث يقول: "يطلق القياس على العملية التي بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيبا تبعا لأنموذج معروف"3. كما يعرف سوسير القياس في اللغة على أنه: "صيغة صنعت على منوال صيغة أو صيغ أخرى، طبقا لقاعدة معلومة"4 ، ومما يلاحظ أن المفهوم مرتبط بالمجال اللغوي.

ومن بين المفاهيم ما طرحه دوكوري حيث يعرفه على أنه: "القياس Analogy عملية ذهنية فطرية، يقوم بها الإنسان ليتمكن من التعبير عن أغراضه وأحاسيسه، وما يخالج ضميره من معان، ولما كانت تلك الأغراض والمعاني تتطور وتتجدد بالاستمرار مع مرور الأيام –إلى درجة يصعب معها العد والحصر- عجز السماع أو النقل عن الوالدين والمجتمع عن اكتساب اللغة والإحاطة بها؛ فاضطر الإنسان إلى أن يشرك معه عقله "الحدس" في عملية الكسب، عن طريق بناء ما لم يدركه بواسطة حاسة السمع على ما أدركه بها، فكان القياس –بذلك- ضروريا في حياة اللغة ونمائها وبقائها صامدة في تلبية حاجة الإنسان"5، ومما نلاحظه على هذا المفهوم أنه يخص اللغة، وقد تدرج فيه من اللغة المكتسبة عن الأسرة والمجتمع في الحياة اليومية والاجتماعية إلى اللغة ذات القوانين والقواعد، ومهما كان فإن مفهوم القياس حبيس مجال اللغة.

**-مفهوم القياس حسب علماء علم الاجتماع:**

يحدد القياس على أنه "تسليط الضوء على أحوال المجتمع الإنساني بناء على دراسة التطور التاريخي، مما يمكنهم من التنبؤ بمسير الأحداث الإنسانية في المستقبل قياسا على سيرها خلال مراحل تطورها في الماضي"6.

**-مفهوم القياس عند علماء علم النفس:**

انطلاقا من تحليل السلوك عند علماء النفس، فإن المنطلق هو تحديد "مسلك الفرد في موقف معين في المستقبل قياسا على استجابته الماضية"7.

إذن، مهما اختلف المجال العلمي الذي يستخدم فيه القياس العلمي، إلا أن مفهومه يبقى مبنيا على حمل مجهول على معلوم لوجود جامع ما يسمح بذلك الحمل.

**2- القياس العلمي:**

القياس كعملية إجرائية حكاية تأسيسية تتبدى خيوطها بدءا من تاريخ البشرية إلى بدء تاريخ تأسيس العلوم البشرية، وبهذا نميز بين القياس غير العلمي والقياس العلمي، ومع هذا الأخير، وهو النوع المقصود بمحاضراتنا، يتولد لدينا مبحث ثر في باب العلوم الإنسانية والاجتماعية، وعلى وجه أخص النقد والأدب واللغة، ويطلق عليه بــــ: **"القياس العلمي"**. وبنوع من التفصيل يمكننا القول، إن الحكاية التأسيسية الأولى تبدأ من قبل استيطان الخليقة الأرض، وبيان ذلك أول القياس الذي ثبته الخطاب الإلاهي عن تلك الحكاية التفاضلية بين الشيطان والإنسان، حيث ابليس يستعمل فيها القياس ليكون بذلك السبيل لإنتاجية أول معصية في السماء، وكما تحقق بها الكبر الذي تلبس به ابليس حتى كان من المطرودين من رحمة الله8. والقرآن الكريم وهو يرشد العباد وينبههم، فإن الله عز وجل قد استخدم القياس "في غير موضع من كتابه فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان، وجعل النشأة الأولى أصلا والثانية فرعا عليها...، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به"9.

كما نتحسس تمظهرات عملية القياس في الخطاب البشري، وقد انحصرت في حياتنا العادية التي هي مليئة بحوادث القياس وذلك على مستوى احتياجاتنا اليومية ومجموع ما نقوم به من قياس لتغطية تلك الاحتياجات، والدليل على ذلك أن "قيادتك للسيارة بأمان مرتبطة بعدة أجهزة قياس (عداد سرعة السيارة – مؤشر درجة الحرارة – مؤشر خزان الوقود...إلخ.). قياس درجة الحرارة وسرعة الرياح واتجاهها عن طريق أجهزة قياس مهم جدا للملاحة الجوية وبالتالي على تنقلاتنا. عداد الكهرباء والماء الموجودين عند مدخل البيت هما أجهزة قياس الاستهلاك وعلى أساسها ندفع الفاتورة إلى شركات المرافق"10، وهذا هو القياس المشكل للخطاب البشري، وهو منبن على القياس العلمي.

**3-أهمية القياس العلمي في مناهج البحث العلمي:**

هذه الأهمية يكاشفنا بها إمام مدرسة القياس أبو علي الفارسي (ت 377 ببغداد) يقول: "لأن أخطئ في خمسين مسألة مما بابه الرواية أحب إليَّ من أن أخطئ في مسألة واحدة قياسية"11، وبيان أهمية القياس العلمي، أنه كان محط اهتمام العلماء منذ القديم، فقد كانت "دراسة عملية القياس ذات شأو كبير في الدراسات اللغوية عند الهنود والإغريق والعرب منذ قديم الزمن، وكانت كذلك من أهم ركائز الدرس اللغوي المعاصر لدى علماء علم اللغة الحديث. وتظهر قيمة القياس في الدرس اللساني جلية عندما نحاول دراسة تلك النظريات الكلاسيكية في ثوبها الجديد المنبثق من النظريات اللسانية الوصفية المعاصرة"12، فضلا عن أهمية القياس بالنسبة للمنطق، والنقد والعلوم الإنسانية قاطبة.

وفي زاوية من الطرح، يتأكد معنا الحديث عن أهمية القياس انطلاقا من العلاقة الوشيجة بين القياس وبقية العلوم المختلفة، فهو أداة صالحة للاستخدام في جل العلوم وبيان ذلك استخدام القياس في النحو حتى أن الداعي لذلك الاستعمال هو حاجة العلوم الشرعية إلى النحو، في الوقت الذي يسجل فيه حاجة النحو للقياس، وفي الوقت عينه لا ينكر حاجة العلوم الشرعية إلى القياس، ولهذا السبب كان "... هذا الظهور المبكر للقياس في الدرس اللغوي العربي منذ هذه المرحلة- للعلاقة الوثيقة التي ربطت الدراسات اللغوية بالعلوم الإسلامية؛ فلما كان القياس معتبرا في الشرع كان اعتباره في دراسات اللغة من باب أولى؛ لأنها نشأت خدمة له؛ ومن هذا المنطلق رأوا أن إنكار القياس يعني إنكار النحو؛ لأن النحو قياس كله"13.

ولأهمية القياس العلمي ألف علماء الدين في هذا الباب كتبا تخص القياس ففصلوا فيه مسائل وفروع القياس، ومن العلماء من خص القياس بكتاب مستقل وهذا من باب الحاجة الماسة للقياس بالنسبة للتشريع الإسلامي\*، وكنوع من الإضافة فإن تمثلات القياس في الخطاب الإلاهي، قد جعلته على أقسام ثلاثة وهي: قياس العلة، وقياس الدلالة، وأخيرا قياس الشبه. أما عن أهمية القياس بالنسبة للنحو أنه يحفظ اللسان من اللحن، ومن الخروج عن طرائق العرب في النحو والصرف والدلالة والتركيب، وذلك فيما ألفه الأنباري، ابن جني، ...إلخ.

والقياس العلمي المخصوص معنا في هذه الأوراق إنما هو القياس العلمي في مناهج البحث العلمي باعتبار التخصص في قسم اللغات والآداب، فكان معنا القياس اللغوي، القياس النحوي، القياس النقدي. وعليه، ووصولا عند القياس بحسب ما تطرحه مناهج البحث العلمي، ما هي منطلقات القياس العلمي حسب التخصصات المضبوطة سلفا؟